

الأثر التداولي في الخطاب الحجاجي شعر "إيليا أبو ماضي" أنموذجا The pragmatic effect in the argumentative discourse poetry Elia Abu

Madi as a model

ط.د. نعام فوزية¹ / خويلد محمد الأمين²

Naama Faouzia¹ / Khouiled Mohamed El Amine²

مخبر الأدب والثقافة الشعبية والترجمة - جامعة زيان عاشور الجلفة / (الجزائر)

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله / (الجزائر)¹ / جامعة زيان عاشور الجلفة / (الجزائر)²

University of Abo El Kacem Saadallah -Algeria2 (Algeria)¹

university of Ziane Achour Djelfa (Algeria)²

fouzia.naama@univ-alger2.dz¹ Khamine2000@yahoo.fr²

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/10/18

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

ملخص البحث

يتجلى الأثر التداولي في ذلك التحول المعرفي والمنهجي الذي طرأ على مفاهيم المنهج اللساني المساهم بدرجة كبيرة في تعدد آفاقه، من خلال قراءة المنجز اللساني باعتباره النسق اللغوي الذي حظي باهتمام واسع من قبل الدارسين على اختلاف توجهاتهم مما أكسبه التنوع لاحتوائه على العديد من الآليات، وتعدّ التداولية أهم فرع لأنها تدرس الاستعمال الفعلي للغة الذي يترتب عن الخطاب بكل استعمالاته سواء عن طريق التلقظ أو النصوص المكتوبة التي تحتوي على الأفعال الكلامية، وتدرس وفق المقاربة التي تعني بالخطاب لا سيما الخطاب الحجاجي كأساس للتواصل الإنساني.

الكلمات المفتاح: أثر تداولي، منجز لساني، نسق لغوي، مقارنة، خطاب حجاجي، تواصل.

Abstract :

The pragmatic effect is evident in that cognitive and methodological shift that occurred in the concepts of the linguistic approach through reading the linguistic achievement as the linguistic system - which received wide attention by scholars - which earned it diversity, Whether through utterances or written texts

* نعام فوزية: fouzia.naama@univ-alger2.dz

that contain speech acts, and study them according to the approved approach that takes care of argumentative discourse as a basis for human communication.

Keywords: pragmatic effect, linguistic achievement, linguistic system, approach , argumentative discourse, communication.



1- مقدمة:

شهدت البحوث اللسانية مع بداية القرن العشرين نقلة نوعية في مجال البحث، وقد كان لها أثر كبير في دراسة اللغة، بعدما كان المنهج البنيوي هو السائد، لينتقل البحث إلى المنهج الوظيفي أو بالأحرى ما يسمى باللسانيات التداولية، التي اعتبرت بمثابة ثورة فكرية تدعو إلى الاهتمام بالاستعمال والتواصل - كوظيفة أولى للغة -، باعتبارها النموذج المدروس من قبل مجموعة من الباحثين على اختلاف المرجعية الفكرية لكل باحث في الدراسة التداولية التي تستند في نشأتها إلى علوم وأسس معرفية عديدة مثل: علم النفس المعرفي، الأنثروبولوجيا، الفلسفة، مما أنتج نظريات تدرس بها اللغة - كإستلزام الحوار ونظرية أفعال الكلام، ونظرية الحجاج-، ونحاول من خلال هذا المقال الذي يتحور حول "الأثر التداولي في الخطاب الحجاجي" شعر إيليا أبو ماضي أنموذجا"، بيان أهمية القصد التداولي للأساليب الإنشائية التوجيهية تحديدا وإيضاح تأثيرات الأقوال الشعرية في السياقات التواصلية وبيان تجليها في الاستعمال اللغوي والخطابي عموما، خاصة الشعر المعاصر الذي يتميز بتعدد معانيه، وتحديد شعر "إيليا أبو ماضي" الذي يحتوي على سمات لها طابعها التأثيري وقد أسهمت في تعدد مضامين القصائد الشعرية، ويسعى بها إلى التأثير في المتلقي معبرا عن قضايا إنسانية خاصة الاجتماعية منها، فهي تعبر عن البعد النفسي موطئا الأسلوب التوجيهي الذي يتجلى في البنية اللغوية للخطاب الشعري أو ما يعرف بالسمات التداولية التي تعمل على تماسك الأبيات الشعرية: فهل تنجح المقاربة اللسانية للخطاب الشعري في تحديد الأثر التداولي؟ وما دلالة توظيف الفعل التوجيهي في شعر إيليا أبو ماضي؟ وماهي سماته الحجاجية؟.

2. أثر التداولية في الخطاب الحجاجي:

إنّ التداولية تدرس اللغة أثناء الاستعمال، وفق مقارنة الخطاب اللغوي وتحليله أي الإحاطة بكلّ الخصائص التي تميز كل قول عن آخر بتسخير المنهجية الخاصة بالتحليل التداولي (العلاقات الموجودة بين الكلمات وسياقها) من الشكل إلى المضمون كتوضيح الأساليب الخطابية التي تميز النصوص عن بعضها البعض، مما يحقق التواصل الفعال بين المشاركين في الخطاب، وتحلل اللغة ضمن سياق متعدد الأبعاد خاصة الجانب الوظيفي للغة، باعتباره نشاطا كلاميا يستلزم فيه تحديد السياق التداولي الذي تؤوّل فيه الجملة، ويمكن

توضيح أثر التفاعل في موقف الخطاب ويشمل: (معتقدات المتكلم ومقاصده، ومستواه الثقافي الذي يظهر في الحدث اللغوي، المعرفة المشتركة، وأثر الفعل الكلامي فيها)، وهذا كله يوضح أن "التداولية تروم دراسة الآثار اللغوية التي تظهر في الخطاب، لتحديد الجانب الضمني والتلميحي والحجاجي للخطاب، ويعرف (فان ديك) (Fan Dick) الخطاب بأنه "الخطاب الذي يهتم بالعلاقات الموجودة بين بنيات النص والسياق"¹.

تتوخى التداولية في تعميق الفهم ببعض الظواهر الخطائية المتولدة عن التواصل من قبيل الحجاج²، ويعني هذا المفهوم إنشاء فعل حجاجي أي توجيه القول أو الخطاب، فأي مؤلف للخطاب يهدف في بداية الأمر إلى أن يحدث أثرا عند المتلقي³، والحجاج يهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغة التي يتوفر عليها المتكلم وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما لتحقيق أهدافه الحجاجية⁴، وموضوع الحجاج هو دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم أي تحقيق الإقناع الذي هو غاية الحجاج⁵، الذي يتميز بخصائص بنائية تواصلية براغماتية تجعله يبين طبيعة اللغة المستخدمة في سياق معين⁶ ضمن استراتيجيات إقناعية تمثل عمود التشكيلة البلاغية، كما أن هذه الأخيرة تصف التقنيات بين التأثير والإقناع، يقول (برلمان - تيتيكا) (Perلمان- Tyteca): نقصد بالحجاج المؤثر ذلك المتوجه إلى مستمع خاص، وبالإقناع المراد تحقيقه⁷، ويُعد المرسل والمتلقي من العناصر المهمة في تشكيل الخطاب الحجاجي، والقصد من ذلك تغيير رأي المتلقي، إذ المتكلم يراعي استعداد المتلقي لقبول ما يلقي إليه من حجج التي يمكن أن نبرهن بها انطلاقا من كل ملفوظ، ويؤكد خاصية أن الحجاج في اللغة غايته "أنا نتكلم عامة بقصد التأثير"، وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج وأن المعنى يمتلك طبيعة حجاجية⁸، لذلك يرسل المتكلم خطابه نحو تحقيق الأثر التداولي (الإقناع)، ويسعى من خلالها لتوظيف القصد الذي يكون وفق المنهج التداولي أي يتم وضعها في سياقات لغوية مختلفة.

1.2. الفعل التوجيهي وسماته الحجاجية:

يكون الاعتماد فيه على فعل التوجيه الذي يؤديه الفعل الكلامي، علما أن التوجيه هو إيصال المتكلم لحجته عبر أغراض إنجازية، ويمثل لهذا النوع من الحجاج بالأفعال الكلامية التي تفي فقط بالجزء الذي يخص المتكلم مع مراعاة مدى تأثير هذا التوجيه على متلقي الخطاب، والأفعال الكلامية تساهم بإيضاح الحدث اللغوي بسبب مختلفة في الحجاج، إذ يضطلع كل منها بدور محدد في الحجاج بين طرفي الخطاب وتترتب الأفعال حسب مقدار الاستعمال، فالمتكلم يستعمل الفعل الكلامي لتحديد المغزى من الخطاب وهذا ما يجعله خطابا حجاجيا، خاصة الأفعال التوجيهية؛ حيث تعتبر هذه الأخيرة من الأصناف الأساسية التي يركز عليها المتكلم في الوصف الكلامي بسماته الوظيفية والتركيبية، وإلا فإن دور الأفعال الكلامية في العموم يستند أساسا على مدى اختيار الأفعال وفق مقتضيات الخطاب اللغوي، وكيفية التأثير في اللغة، معتمدا في ذلك على مختلف الأساليب الإنشائية التي تحمل الصيغة التوجيهية، إذ يستعمل المتكلم أفعال التوجيه ويعول عليها مبرزا الصفة

الحجاجية للخطاب، وأولها الاستفهام الذي يستخدمه المخاطب في اللغة للحصول على إجابة أو إثبات رأي، ويتم تأويلها تداولياً باعتباره فعلاً كلامياً يتوجه فيه إلى المتلقي بطلب مباشر أو غير مباشر لفعل شيء ما، وفي هذه الحالة يتم تجاوز المعنى الحرفي المتمثل في السؤال لتحديد المعنى أو الفعل المتضمن في القول من خلال المؤشرات اللغوية التي تنتج التأثيرات القولية، أو ما يقصد بنجاح الفعل الكلامي لكي لا يكون عديم الأثر التداولي ويكون مُنجزاً للقوة الحجاجية التوجيهية للقول الشعري، وخاصة في اعتماد إثارة الأسئلة واستعمالها تحقيقاً لأغراض تداولية وفي القول الشعري التالي، قصد الشاعر طرح استفهام يحاول عن طريقه إثبات رأيه في الحياة قائلاً:

كَيْفَ جِئْتُ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي؟
أَجْدِيدٌ أَمْ قَدِيمٌ أَنَا فِي هَذَا الْوُجُودِ؟
هَلْ أَنَا حُرٌّ طَلِيقٌ أَمْ أَسِيرٌ فِي قُبُودِ؟
أَتَمَنَى أَنِّي أَذْرِي وَلَكِنْ... لَسْتُ أَذْرِي

الديوان، ص 139

استعمل الشاعر "إيليا أبو ماضي" أسلوب التوجيه في قصيدة "الطلاسم"، وهو في هذه الحالة لا يعكس حمل المتلقي بوجوده في الحياة بقدر ما يعكس محاولة المتلقي الإجابة عن حقيقة الوجود، التي تحمل ضمناً طرح تساؤل جوهري هو ما الغاية من هذا الوجود؟، والأفعال التوجيهية المتتابعة المتمثلة في: الاستفهام تظهر تقنيات الحجاج وتعبّر عن تأثر النفس بوضع ما، حيث حاول الشاعر في هذه الأبيات تجسيد فكرة جوهر الوجود، وقصد من خلالها الحاجة وذلك بإثارة التساؤلات التي تدور في ذهن الإنسان الذي يبحث عن سبب وجوده في هذه الحياة، حيث عبّر عنها بفعل كلامي كلي المتمثل في عبارة (لست أذري) التي تندرج ضمن الإجابة الضمنية عن التساؤلات الجوهرية التي تحقق أسلوب المحاور مع الذات، لكي يعبر عن ذاته وطرح مثل هذه الأسئلة وكأنها في صفة المبهات لديه، إلا أنه يعكس صورة نفس الإنسان التائهة الحزينة التي تريد التخلي عن القيود لتتعمق بالحرية المطلقة التي تأبى من هذا الوجود المحتم عليها، وهذه الأساليب الحجاجية تعكس إقناعاً القبول أو الرفض، وتُحِيلُ في الآن ذاته إلى تدخل المتكلم في الخطاب الحجاجي والتأثير في المخاطب. إنّ الغرض الإنجازي المتحصّل عليه في هذه القصيدة هو تأكيد حالة الأسى وصفة التحسّر التي يشعر بها الإنسان وما آلت إليه حياته، فهو في حالة من التساؤل الدائم التي تلازمه وتحدّد موقفه من هذه الحياة التي يعيشها وهي تشكّل الحجة في ذاتها، كما أنه فعل حجاجي ضمني وفق ما يقتضيه السياق، وقد أكثر الشاعر إيليا أبو ماضي من استعمال الحجاج التوجيهي، والغاية من ذلك هو لفت انتباه القارئ، ودعوة المتلقي للإجابة عن السؤال المطروح، كما يظهر جلياً أنّ القصد التداولي للاستفهام يتجلى مرّة أخرى في الأبيات الآتية:

لَا فَهْذِهِ وَتِلْكَ تَأْتِي وَتَقْضِي
كَذُوبِيَا، وَأَيُّ شَيْءٍ يُؤَيِّدُ؟

أَنْتَ مِثْلِي إِلَى الثَّرَى وَالْيَتَى فَلَمَّاذَا يَاصَاحِبِي التَّيْهَ وَالصَّدْ؟

الديوان، ص 40

نلاحظ أنَّ الشاعر قد أكثر من استعمال فعل التوجيه في قصيدة "الطين"، وحاول من خلالها استمالة المتلقي، فالآليات التوجيهية تأخذ المستمع إلى ضرورة الإجابة عن التساؤل ومفادها أن يعقد المقارنة المطروحة من قبل الشاعر بين صنفين من البشر، حيث أحدثت هذه الاستفهامات تناغما على مستوى الإيقاع، وهذا الأسلوب مفاده التذكير بأصل الإنسان المخلوق من طين، وهذا عنوان القصيدة الذي يحمل رمزيتها، قد وظفه الشاعر لأنه من سمات القصيدة المعاصرة التي تحمل دلالة الفعل الكلامي المباشر التوجيهي، والذي يتضمن أفعالا إنجازية كـ (التقرير - الحسرة - التعجب - الاستغراب - والتأكيد...)

إنَّ حجاجية الخطاب الشعري في هذه القصيدة يركز على توظيف القوة الإنجازية التي تعمل على إقناع المتلقي بأن كل بني آدم سواسية، فما الذي يدفع الإنسان إلى التعالي والغرور، وقصد من خلالها أيضا ضبط سياق القصيدة ليأتي متوازيا في إبراز التناقض وتأكيد إلزامية الدفاع عن وجهة نظره، وذلك من خلال توالي الفعل التوجيهي الذي حدّد لنا شكل الخطاب الحجاجي الذي له أسلوب خاص يؤدي بالمتلقي إلى الحكم على هذا بالإيجاب، وهذا هو جوهر حجاجية الإقناع؛ وهي محاولات خطائية قام بها بدرجات متفاوتة قدّم من خلال الاعتراض على سلوكيات أراد الابتعاد عنها فكانت بمثابة السبب الرئيسي لنظم هذه الأبيات ووصف حجاجية الخطاب الشعري بأدوات لغوية مباشرة متعدّدة، أمّا الفعل الكلامي فقد استخدمه الشاعر في كلّ القصائد التي تحمل الطابع التوجيهي، وهي عديدة حيث غلب عليها الطابع الاجتماعي معتمدا على أسلوب الإقناع وهذا يؤكد الأثر التداولي في مختلف القصائد، واستعمل الشاعر في القصيدة نفسها الفعل التوجيهي المتمثل في " الأمر " قائلا:

فَأَمْنَعُ اللَّيْلَ أَنْ يَمْدَ رَوَاقًا فَوَقُّهُ، وَالصَّبَابَ أَنْ يَتَلَبَّدَ
فَارْجُرُ الرِّيحَ أَنْ تَهْزَ وَتَلْوِي شَجَرَ الرُّوضِ أَنْ يَتَأَوَّدَ

الديوان، ص 42

يريد الشاعر أن يُثبت من خلال هذه العبارات الأمرية (امنع، انظر، ازجر...) فكرته المتمثلة بأنَّ الإنسان المتعالي لا يملك أي شيء، وهذا يحمل مجموعة من الأغراض الإنجازية التي تدور حول الإقناع والفعل الكلامي المتضمن في القول هو (التعجيز)، وعليه نؤكد أنَّ الخطاب الحجاجي تتمثل في الأفعال الكلامية (الاستفهام والأمر):

أَيُّهَا الطَّيْنُ لَسْتُ أَتَى وَأَسْتَمِي مِنْ ثُرَابٍ تَدُوشُ أَوْ تَتَوَسَّدُ

الديوان، ص 39

وتم ذكر الأسلوبين للدلالة أن الإنسان خلق من طين ونهائيه ومصيره المؤكد هو عودته إلى التراب، وهذه غاية الشاعر من نظم القصيدة التي تحمل في طياتها خطابا حجاجيا توجيها هدفه المقارنة، وعليه في الأخير تقبل هذا ويتجلى ذلك في الفعل التأثري أو الفعل الناتج عن القول تحديدا الأثر التداولي في القصيدة وهذا ما يجعل المتلقي قبول الدعوى والقصد من الأسلوب الحجاجي في القصيدة الإيضاح والإقناع.

إن الوظيفة الحجاجية تتم عن طريق الوظيفة التأثيرية التي تتحقق من خلال الكفاءة التداولية للمتكلم من خلال توظيفه لمختلف الأفعال الكلامية، والتي هدفها إيصال المعنى والتأثير بالدرجة الأولى في المتلقي حيث قال إيليا أبو ماضي في قصيدته ابتسم:

قُلْتُ ابْتَسِمْ يَكْفِي التَّجَهُُّمُ فِي السَّمَاءِ

قَالَ السَّمَاءُ كَثِيبَةٌ وَتَجَهَّمَا

شَبْرٌ، فَإِنَّكَ بَعْدَهَا لَنْ تَنْبَسِمَا

قُلْتُ ابْتَسِمْ مَا دَامَ نَيْتُكَ وَيَنْ الرَّدَى

الديوان، ص 246

نلاحظ أن البعد الحجاجي للأبيات يتضح على هيئة سلسلة من الأفعال الكلامية التوجيهية والفعل الكلي هو "ابتسم" الذي أكسب القصيدة إيقاعا موسيقيا يبعث في نفس المتلقي التفاؤل والإقبال على الحياة، والغاية الحجاجية تتجلى في نظمها بأسلوب المحاور للقول ما بين التساؤل الضمني والإقناع، فالشاعر يمتلك الخطاب التسلسلي في سرد التساؤلات، واختار هذا النمط الأسلوبي إثبات رأيه وجاء أسلوبه بسيطا مما أكسب القصيدة بعدا جماليا وسلاسة في الأقوال الشعرية ذات الطابع الفني، حيث قدم العبارة الحتمية لإقناع المخاطب ما دام الإنسان يتمتع بصفة الحياة، وهذه كلها أفعال كلامية تعبيرية ترشد الإنسان لكي ينعم بالتفاؤل وهذا يبين الفعل التأثري للقصيدة وغرضها التداولي هو محاولة الشاعر إيصال المعنى وتوجيه المتلقي إلى فعل معين، على نسق جملة من الأوامر ووجه المطابقة فيه من الكلمات إلى العالم مما يحقق الوصف الشعري.

إن الخطاب الشعري عند الشاعر "إيليا أبو ماضي" ليس مجرد أقوال و تعابير بل هو خطاب يمتلك مجموعة من الأفعال الكلامية الكلية التي تشكل المضمون الشامل لمختلف القصائد التي تشكلت منها دواوينه وهو يهدف إلى تغيير وضع المتلقي وتغيير أفكاره أو تغيير موقفه إزاء الأشياء، وهذا ما أكسبه صفة الحجاجية، حيث وظف الشاعر ذلك من خلال تطرقه إلى عدد من المواضيع التي بدورها شكلت تنوعا على مستوى الأسلوب، وهذا يعني أن الخطاب أو النص الشعري هو عبارة عن أفعال كلامية تتشكل من (فعل القول – الفعل المتضمن في القول – الفعل التأثري) :

يُعدّ فعل القول مجموعة من الألفاظ التي تمتلك تركيبا نحويا وصوتيا سليما سواء كانت أسلوبا خبريا أو إنشائيا، أما الفعل المتضمن في القول فهو الذي يشكل القوة المتضمنة في القول الشعري أي الغرض المراد أو

المقصود من الخطاب، ويتشكل هذان النوعان من الأفعال الكلامية لتوظيف الفعل التأثيري الذي هو جوهر موضوعنا أو ما يُعرف بالأثر الذي يتركه الفعل الكلامي الكلي للخطاب الحجاجي، وهو ما ينتج عن الأقوال أي الآثار المترتبة عن الخطاب الشعري، قصد الإقناع والتأثير في المتلقي وتوجيهه. وهذه السمات تحتوي عليها كل خطاب لاسيما الخطاب الشعري الذي له خصائص تتجاوز الملفوظات إلى الفعل المتضمن في القول والأثر التداولي، خاصة الخطاب الحجاجي للشعر المعاصر حيث تراوحت عبارته بين الجمل الخبرية والجمل الإنشائية وهذا ما يطلق عليه في الدرس التداولي بالأفعال المتضمنة في القول، وتتنوع هذه الأفعال الكلامية سواء أكانت مباشرة أو غير مباشرة تكون لها قوة حرفية مثل الإستفهام، والتمني، والأمر، .. وقد تكون لها قوة إنجازية استلزامية مثل: (الالتباس، التوجيه الإرشاد، التعجيز، التعجب، والتحسر...).

يُعدّ الفعل الكلامي المتضمن في القول جوهر البحث التداولي، حيث تمّ دراسته ضمن العديد من الرسائل والبحوث توظيفا ومفهوما تداوليا حديثا، وهو من صميم البحوث البلاغية العربية تحديدا في مبحث علم المعاني أو ما يعرف بنظرية الخبر والإنشاء، أو ما يعرف بالمقام في البحث البلاغي فكلّ مقام مقال ولكلّ حال رجال، فهذه العبارة الشهيرة تمثل لب العملية التداولية أو تحديدا الأثر التداولي ولأنه لكلّ خطاب ألفاظه ومحدداته السياقية والمقامية وروابطه وأفعاله وسماته الحجاجية التي تهدف إلى تمييزه إما مباشرة أو غير مباشرة، وتوظيف الأفعال الكلامية يعني أننا ربطنا الأفعال المتضمنة في القول على حسب السياق الذي استعملت فيه؛ أي ربط الأقوال بالأفعال والسياق بالمقال، فعندما نقول خطابا يعني أننا نجز فعلا يتميز بالسمّة الصوتية التي تؤدي إلى أن يكون سليما تركيبيا، ويحتوي على المعنى الدلالي الذي نستنتج منه الوظيفة التداولية التي نقول أنها تتشكل من: الفعل التركيبي – الفعل الدلالي – الفعل التداولي (الفعل الإنجازي – السمة الحجاجية)، وهذه كلّ السمات التداولية التي يحتوي عليها الخطاب الشعري منها الروابط والعوامل والأدوات المشكلة له، ويتم توظيفها إما وصفا أو توجيها أو إخبارا أو معنى حجاجيا في الاستعمال اللغوي المبني على التوظيف التداولي.

2.2 السمات الحجاجية:

أ/ حجاجية الاستعارة:

إن موضوع حجاجية الاستعارة في الشعر العربي تمّ تناوله من قبل الباحثين فيما يعرف بالبلاغة الجديدة لأنها سمة بلاغية تبين علم البيان عند البلاغيين، وهي تشبيه حذف منه المشبه أو المشبه به، كما تُعتبر من السمات الحجاجية في الخطاب الشعري ولقد اعتمدها الشاعر "إيليا أبو ماضي" في قصائده قائلا:

فَنَسْتُ حَيْبَ الْفَجْرِ عَنْهَا وَالْدَّجَى
وَمَدَدْتُ حَتَّى لِلْكَوَاكِبِ اصْبَعُ
وَالْبَحْرُ كَمْ سَاءَ لُتْهُ فَتَضَاكَتْ أَمْوَاجُهُ...

الديوان، ص11

يبدو أنّ أسلوب التلميح واضح في هذه الأبيات، حيث استعار الشاعر مجموعة من الصفات (جيب الفجر- مددت للكواكب - والبحر كم ساءلته - تضاحكت أمواجه...)، فهذه الصفات يمتلكها الإنسان، والشاعر عبّر من خلالها وعوّّل على قدرات القارئ الذهنية في استحضار العنصر المحذوف ومدى ملاءمته للواقع؛ وهنا تكمن حجاجية الاستعارة وبلاغتها، فيقدر تمكّن مستعمل اللغة من أساليبها البلاغية، ثمّ أسر ذهن المتلقي فيما يرمي إليه لقدر ما تقمّ بلاغته ومدى قوّة حجاجيته، فلو عدنا إلى قول الشاعر نجدّه يستهدف نوعا من الاستعارة تمثلت في الاستعارة المكنية، حيث جاءت ملائمة للوصف ولها دور حجاجي وهو تقوية المعنى وإبرازه، وفي قوله (مددت حتّى للكواكب) ذكر الرابط الحجاجي "حتّى" لكي يعزز موقفه ويثبت رأيه والرابط الحجاجي يحمل في داخله معنى المبالغة، وهذا يدل على أنّ لغة الشاعر لها وظيفة حجاجية.

ب- الروابط الحجاجية:

يتكوّن الخطاب الشعري من الأدوات اللغوية التي تربط بين أبيات القصيدة الواحدة المتمثلة في الروابط الحجاجية مثل: (ذلك، أنّ، هذا، ثم، حتّى، لكن، إذا، بل...) وتساعد على استخلاص المعنى المراد إيصاله سواء أكان ضمينا أم ظاهريا، فالروابط الحجاجية هي بمثابة مؤشرات لغوية تؤكّد المعنى الحجاجي الذي يربط بين خصائص التركيبة اللسانية التي تتألف من فعلين كلاميين يتم تأويلها ضمن مقتضيات الخطاب، ويتم الربط الحجاجي بين قولين أو حجتين، وهذا ما يجعل له صفة الخطاب الحجاجي، ولها أثر تداولي ومؤثر لغوي واضح يؤدّي للوصول إلى نتيجة فيها يتم الانتقال من الحجة إلى النتيجة عن طريق الألفاظ الموحية المعبرة عن الحجج الرئيسية، وللتوضيح أكثر نذكر المثال الآتي:

وَالْبَحْرُ قَدْ طَفَرَتْ بِدَاكْ بِدْرِهِ
وَحَصَاهُ، لَكِنْ هَلْ مَلَكْتُ هَدِيرُهُ؟

الديوان، ص224

استعمل الشاعر الرابط الحجاجي (لكن) لكي يؤكّد قوله، وهو رابط يعمل على الاستدراك والحركة اللفظية، وتكون وظيفته دحض ملفوظ بآخر للحصول على حكم صحيح له صفة القوة الحجاجية فيأتي بالحجة وضدها، وعلى هذا فإنّ المرسل يوظف الرابط الحجاجي (لكن) ليستدرك ما يتبع ذلك بالنفي أو النهي أو التعبير عن رأي ما، وهنا حمل الرابط معنى "التعجيز".

إنّ الرابط الحجاجي لا يحمل في ذاته أي معنى ووظيفته الربط بين العبارات وتشكيل معنى لها ومن خلاله يتم استنتاج المعاني، لذلك تمّ تناولها ودراستها من قبل الكثير من الباحثين خاصة التركيز على وظيفتها التداولية أو التركيز عن البعد التداولي والحجاجي للروابط سواء في الدراسات البلاغية واللسانية تحديدا عند

الغريبين، يُعدّ "ديكرو" أول من درس هذا الموضوع، حيث أخذ بعين الاعتبار البنية التركيبية للغة وفيما بعد تطرّق بما يُعرف بالعامل الحجاجي، ومثال على ذلك نذكر قول الشاعر:

ما ذلّلتُ سُبُلَ المعالي أمّــــةً
إلاّ بقوّة مُصلِحٍ أو هادي⁹

الديوان، ص 131

فالعامل الحجاجي (ما..... إلا) وظّفه الشاعر ليؤكد القوّة الحجاجية للقول، وذلك بترتيب الحجج وتناسقها حسب درجاتها الحجاجية، فالعامل الحجاجي يؤدّي وظيفة الربط بين حجتين يمتلكان دلالة داخل الفعل الكلامي نفسه، أو الموضوع الواحد، وتتصف العوامل بدورها في توجيه دلالة الملفوظ وجهة حجاجية وذلك لتحديد النتيجة والتي تتمثل في الوصول إلى المعالي وأعلى المراتب، وذلك بحجّة أنّ كلّ مصلح لابدّ أن يمتلك صفة القوّة، وقد كان لهذا التوظيف (النتيجة – العامل الحجاجي – الحجّة) تدرّجا حجاجيا يخدم القول الشعري ويوحي إلى المعنى المقصود لما له من وظيفة تداولية تمتلك كل الخصائص التعبيرية التي تثبت أنّ الخطاب الشعري حجاجيته وأثره التداولي.

ج-/- آلية التكرار: إنّ أسلوب التكرار من الآليات الحجاجية التي تحظى بها اللغة العربية، ويُعدّ توظيفها في الخطاب الشعري دلالة على السمات الحجاجية، ويتمّ تحديدها في التركيب اللغوي، لأنّه يربط بين المفردات والجمل وال فقرات النصيّة ولها دلالة قصديّة يتمّ استعمالها بطرق مختلفة ومنها:

أ/- التكرار الكلي: أي أن يتكرر اللفظ وله معنى واحد في النص الشعري، وله وظيفة إقناعية خاصّة إذا كرر الشاعر في قصائده اللفظ أكثر من مقطع، وهو يعكس تأكيده للأقوال، وغايته إبراز المعنى بذكره عدّة مرات وذلك للتأثير في المخاطب.

ب-/- التكرار الجزئي: يرتبط هذا النوع من التكرار بشكل الخطاب، وتكون من معاني العبارات وتوظيفها دلالة على الحجج كما يحدث تناسقا على مستوى الخطاب، كذكر الفعل أو الاسم وتحديد الألفاظ المنتمية للعبارات اللغوية المختلفة المشكلة للنصوص الشعرية، وقد ورد ذكر أسلوب التكرار عند الشاعر "إيليا أبو ماضي" في أكثر من موضع، نذكر منها على سبيل المثال:

أُــــمْسِيتُ أَنْظُرَ فِي الحَيَاةِ فَلَا أَرَى
إلاّ بِسَوَادٍ آخِذاً بِسَوَادٍ
وَمَوَاطِنُ الأَرْوَاحِ يَغْطُمُ شَأْنُهَا
فِي النَّفْسِ فَوْقَ مَوَاطِنِ الأَجْسَادِ

الديوان، ص 129.

نستطيع القول أنّ الشاعر قد وظّف أسلوب التكرار، حيث كرر في البيت الأول كلمة "سواد"، وذكرها مرتين للدلالة على نظرته اتجاه الغربة التي يعيشها هذا من جهة، ومن جهة أخرى السواد الذي يصيب النفس فهو لا يرى إلا السواد بعينه، ويكشف التكرار تأكيد الحجّة المبنية على تلك النظرة الدالة على التشاؤم،

وقدّم تأمله ليعبث في صاحبه الأمل لأنه بات يعيش في الغربة القاسية، وحرف العطف أدّى وظيفة الربط بين حجتين، وهذه العبارة التكرارية عكست النظرة السوداوية للشاعر في البيت الأوّل وربطها بالبيت الثاني للتعبير عن مشهد الإنسان المغترب فجاء تكرير كلمة "مواطن" مرتين تدلّ الأولى على موطنه "لبنان" والثانية على الغربة في موطنه الثاني "أمريكا"، والهدف من التكرار هو التأثير في المتلقي وشدّ انتباهه للكلام، فالرباط "الواو" تمّ بواسطته الانتقال من مقطع شعري لآخر حصل فيها الربط بين الحجّة والنتيجة قصد استمالة المتلقي والتأثير فيه، وخلق صورة نسقيّة حجاجية ليخلص إلى أنّ الوطن الأم مكانه الروح والنفس بالدرجة الأولى، ليعكس مدى تعلّقه ببلاده وحنينه اتجاه وطنه.

3. خاتمة:

إنّ التركيز على البعد التداولي هو العناية بالوظيفة التأثيرية للخطاب، ممّا يجعله خطابا حجاجيا، وهو مقارنة تهتم بالتواصل والإقناع والتأثير، وذلك باستعمال مختلف الآليات اللسانية التداولية مثل استعمال آلية أفعال الكلام خاصّة الحجاج التوجيهي وتحديد الروابط الحجاجية التي تهتمّ بالبنية الداخلية للغة التي حدّدها كلّ من النحاة والبلاغيين بالإضافة إلى تقنيات الخطاب التي تُعنى بالمتكلم والمخاطب على حدّ سواء، ومقاصدهم وتكوينهم الثقافي في الحدث اللغوي، معتمدا على السياق الكلامي للخطاب الشعري المعاصر على وجه الخصوص، الذي تتجلى منه كل المقاصد التي تظهر في مختلف المستويات اللغوية بداية بالمستوى التركيبي مروراً بالمستوى الدلالي ووصولاً إلى المستوى التداولي الذي احتوى على كل المميّزات والآليات التي تدفع بمحللي الخطاب الشعري لإعادة دراسته وفق المناهج اللسانية لإيضاح الأثر التداولي فيه، وهذا يثبت مدى استجابة النصوص الشعرية للتطبيق الإجرائي الفعلي لمختلف الآليات المطروحة التي تثرى المناهج، وتفسح المجال للبحث اللساني وتحليل الخطاب للغة العربية التي لها ساهمتها التداولية والحجاجية تحديداً.

هوامش:

¹ ينظر: البستاني بشرى، 2012، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، ط1، لندن، مؤسسة السياب، ص 33.

² ينظر: جواد ختام، 2016، التداولية أصولها واتجاهاتها، ط1، عمان، دار كنوز المعرفة للنشر، ص18.

³ جميل حمداوي، 2014، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، المغرب، مكتبة الأدب المغربي، ص 38.

⁴ صابر الحباشة، 2006، التداولية والحجاج، ط1، دمشق، صفحات للدراسة والنشر، ص50.

⁵ حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس، كلية الآداب، ص 300.

⁶ البستاني بشرى، 2012، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، ص365.

⁷ ينظر أمينة الدهري، 2011، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ط1، المغرب، شركة النشر والتوزيع للمدارس، ص 21.

⁸ عبد الهادي بن ظافر الشهري، 2004، استراتيجيات الخطاب، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص 459.

⁹ إيليا أبو ماضي، الديوان "الأعمال الشعرية"، دار كتاب وكتاب، ص 131.

قائمة المراجع:

- 1- أمينة الدهري، 2011، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، ط1، المغرب، شركة النشر والتوزيع للمدارس.
- 2- إيليا أبو ماضي، الديوان دار كتاب وكتاب، بيروت، لبنان.
- 3- البستاني بشرى، 2012، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، ط1، لندن، مؤسسة السياب.
- 4- جميل حمداوي، 2014، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، المغرب، مكتبة الأدب المغربي.
- 5- جواد ختام، 2016، التداولية أصولها واتجاهاتها، ط1، عمان، دار كنوز المعرفة للنشر.
- 6- حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس، كلية الآداب.
- 7- صابر الحباشة، 2008، التداولية والحجاج، ط1، دمشق، صفحات للدراسة والنشر.
- 8- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديد.